

مساهمة وحياء أبي حيان الأندلسي في الشعر العربي Contribution and life of Abu Hayyan al-Andalusi in Arabic Poetry

Dr. Kausar Arshad

Assistant Professor, Arabic Department, NUML, Islamabad

Email: karshad@numl.edu.pk

ORCID: <https://orcid.org/0000-0002-8202-7295>

ABSTRACT:

Abu Hayyan was known for the multiplicity of his sciences and knowledge of jurisprudence, grammar, interpretation and rhetoric, as well as being a poet's personality.

As Abu Hayyan is a gentle poet who made his poetic through a number of features and elements, perhaps the most important of which is self-building through his travels, as well as his personal circumstances, which were represented by his loss of his wife and children, the bitterness of alienation and his loss of sight at the end of his life.

This progress and prosperity was the emergence of a number of literary poles, especially in the late seventh and early eighth centuries, including Minister Ibn al-Hakim (708 AH) and his son Abu Bakr Muhammad, and Abu Abdullah bin Muhammad Khamis al-Talmisani (708 AH) and Abu Hayyan al-Andalusi (745 AH), Abu al-Hasan Ali ibn al-Jayab (749 AH), and Abu Abdullah ibn Jaber al-Andalusi, the blind.

Keywords: Life, contribution, Abu Hayyan, poetry, Andalus

الكلمات المفتاحية: حياة ، مساهمة ، أبو حيان ، شعر ، أندلس

الملخص

عرف أبو حيان بتعدد علومه ومعارفه من فقه ونحو وتفسير وبلاغة فضلاً عن كونه شخصية شاعر، ويفترض البحث وجود أثر لهذه الخبرة العلمية في هذه الشخصية الشاعرة، وعليه تدور الفكرة الرئيسة المتمثلة بمحاولة رصد هذه الخبرة في شاعريته.

إذ أن أبا حيان شاعر رقيق صنع شاعريته بوساطة جملة من المميزات والعناصر لعل أهمها بناء الذات من خلال ترحاله فضلاً عن ظروفه الشخصية التي تمثلت بفقدانه لزوجته وأبنائه ومرارة الغربة وفقدانه بصره في أواخر عمره.

فكان هذا التقدم والازدهار هو ظهور عددٍ من أقطاب الأدب وخاصة في أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن، ومنهم الوزير ابن الحكيم (٧٠٨ هـ) وولده أبو بكر محمد، وأبو عبدالله بن محمد خميس التلمساني (٧٠٨ هـ). وأبو حيان الأندلسي (٧٤٥ هـ) وأبو الحسن علي بن الجياب (٧٤٩ هـ) وأبو عبد الله بن جابر الأندلسي الضير.

لقد شهد ذلك العصر تألقاً أدبياً وبرزت فيه مجموعة علوم، وكان أحد عوامل التألق الأدبي في ذلك الوقت هو عناية الحكام والأمراء ومؤازرتهم لأصحابها، لأن مقام العلم عندهم مقدم والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة. المقالة التالية ستلقي الضوء على أبي حيان الأندلسي ومساهمته في الشعر العربي.

سيرة حياته

ينتمي أبو حيان إلى أهل الأندلس في مملكة غرناطة (٦٣٥-٨٩٧ هـ) تلك الرقعة الصغيرة التي وقعت بأيدي الأسبان. وقد بقي المسلمون تحت سيادة بني الأحمر لقرنين ونصف حتى سقطت دولتهم لتغيب شمس الأندلس الساطعة بعد حضارة استمرت ثمانية قرون، إلا أن غرناطة لم تكن معزولة عن الحياة الأدبية والثقافية فقد أخذت نصيبها من التحولات التي عصفت بالأندلس وسرعان ما أخذ التطور والتحضر الأدبي بالاجتماع الغرناطي بالتقدم مما أدى إلى اتساع حلقات العلم ومجالس الأدب التي شهدت حواراً خصباً.

هو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي، أو أثير الدين أبو حيان الأندلسي، وفي بعض الأحيان يلقب بأبي حيان الجياني^(*) أو أبو حيان النفري^(١)، ولد في العشر الأخيرة من شوال سنة (٦٥٤ هـ - ١٢٥٦ م) في حي من أحياء غرناطة يسمى (مطخشارش)^{(**)(٢)}.

يقول المقرئ مناقشا الصفدي: "وما ذكره رحمه الله في موضع ولادة أبي حيان غير مخالف لما ذكره في الواقي أنه بغرناطة، لذا قال الرعيني: أن مولد أبي حيان بمطخشارش من نواحي غرناطة ومع ذلك لم يكن لها أثر في حياته ولا في شعره"^(٣).

وتلقى أبو حيان علومه الأولى في مسقط رأسه (غرناطة) مبتدئاً بدراسة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وعلوم أخرى.

وقد أشار الدكتور أحمد مطلوب أن والد أبي حيان كان مغمور الذكر فقال: "وليس في المصادر التي بين أيدينا ما يشير إلى أبيه أو أفراد أسرته ويبدو أن أباه لم يكن من ذوي السلطان ولا من ذوي العلم والمكانة الاجتماعية المرموقة ليذكر وتتناقل أخباره الكتب والرواة"^(٤)، ولعل هذا الكلام بجانب الحقيقة لأن البيئة العلمية والتأثر لهما أثران كبيران في تكوين شخصيته وكلا العاملين موجودين في حياته،

فالعامل الأساسي الأول نجده في أبيه الذي كان علماً من أعلام التفسير والبيئة العلمية في الأندلس التي ساعدت على قوة فكره ونضوج علمه^(٥).

ورغم الأحداث المؤلمة التي مرت بالأمة الإسلامية عامة والأندلس خاصة فقد كان لأبي حيان نصيب من هذه الأحداث التي تركت أثراً بالغاً في حياته وتناجه الشعري ونلمس ذلك من خلال وصف ابن خلدون لما آلت إليه أمور الحضارة في العراق والأندلس في مقدمته المشهورة: "ثم لما انحلت نظام الدولة الإسلامية وتناقصت ودرست معالم بغداد بدروس الخلافة فانتقل شأنها من الخط والكتابة والعلم إلى مصر والقاهرة فلم تنزل أسواقه نافقة إلى هذا العهد"^(٦). هذه الأحداث الخارجية والتي لا تقل تأثيراً عن الأحداث الداخلية التي مست حياة أبي حيان من قريب أو بعيد نذكر منها:

فقدانه البصر في أواخر عمره وفقدانه إبنته (نضار) والتي كانت تلقب أم الغر، وكانت من حفظة القرآن حيث سمعته إلى شيوخ مصر وخرجت لنفسها أحاديث ونظمت شعراً وكان أبوها يقول: "ليت أخاها حيان مثلها" توفيت بمرض غريب في جمادى الآخرة سنة ٧٣٠ هـ فحزن والدها عليها حزناً عظيماً ورثاها بقصائد عديدة في الديوان اثنتا عشرة قصيدة في رثاء عبر عن لوعته وحزنه ناعياً علمها وفطنتها وذكرها^(٧):

تذكر بعداً من نظار فما صبر	حليف أسى رام السلو فما قدر
فأضرم نارا في الحشا قد تسعرت	وأمطر شوبوب المدامع كالمطر
نضار لقد اسقيتني كأس لوعة	هي الصبر المكروه أو طعمها امر
نضار لقد خلفتني ذا مصائب	إذا شرعت تنأى تداعت لها اخر
نضار اعلمي إنني بقلبي وقالي	لديك مقيماً لا يقر لي السفر ^(٨)

وفقدانه زوجته: زمردة بنت ابرق، وقد كانت من حفظة القرآن الكريم ومن المحدثات بالحديث النبوي الشريف وقد ماتت في ربيع الآخر سنة ٧٣٦ هـ وله في رثائها قصيدة طويلة يصور فيها ما كان يعتريه من ألم الفراق قائلاً:

ودهاني من بعد ذلك فقدي	أم حيان خيرة الأخيار
كانت أنسي في وحدتي واغترابي	ومنامي ويقظي وسفاري
ونديمي في رحلتي ومقامي	وزميلي في حجّتي واعتمادي

كنت أرجو بان تعيش وتبقى حين سقمي تدور بي وتداري
لم تكن زوجة ولكن كأم وأنا كابنها صغير الصغار
كانت الروح بين جنبي راحت فحياتي صارت كثوب معار^(٩)

١- وفاة أبنه حيان: وكان ولده الأكبر وقد سمع القرآن الكريم من شيوخ مصر وقرا معظم كتب أبيه وأسمع عليه معظم كتبه ومنها كتابه (غاية الإحسان في علم اللسان) ومات في أواخر شهر رجب ٧٦٤ هـ.

هجرته من غرناطة إلى مصر:

لم يطل المقام بأبي حيان في الأندلس فقد غادرها سنة ٦٧٩ هـ وجاب العديد من البلدان فمن المغرب إلى تونس إلى السودان وإلى الهند أخيراً وإلى شمال أفريقية إلى أن استقر في مصر^(١٠). وكان لهذه الهجرة أسباب عديدة منها:

١- مقامة بين أناس ينكرون فضله وهذا شيء طبيعي في مثل حالة أبي حيان الذي عرف بالذكاء الحاد وقوة الحافظة ويشهد بذلك لسان الدين بن الخطيب عندما قال: "كان أبو حيان نسيج وحده في ثقوب الذهن وصحة الإدراك والاطلاع بعلم العربية والتفسير"^(١١).

أما السبب الثاني فرغبته في أن يصبح وريثاً بعلوم المنطق والفلسفة والرياضة والطبيعة، قال الصفدي: "ورأيت في كتابه النضار الذي ألفه في ذكر مبدئه واشتغاله وشيوخه ورحلته، ان مما قوى عزمي على الرحلة عن غرناطة أن بعض العلماء بالمنطق والفلسفة والرياضة والطبيعة قال للسلطان: أني كبرت فأخاف أن أموت، فأرى أن ترتب لي طلبه أعلمهم هذه العلوم لينتفعوا بها من بعدي، قال أبو حيان: فأشير أبي أن أكون من أولئك وأحظى براتب وكسوة وإحسان فتمنعت ورحلت مخافة أن أكره على ذلك"^(١٢).

أما السبب الثالث خلافة مع أستاذه ابن الطباع^(*)(١٣) فألف فيه كتاباً سماه (الإلماع في إفساد إجازة ابن الطباع) فدفع ابن الطباع أمره الأمير محمد بن نصير المدعو (بالفقيه) فأحس أبو حيان بما اعتزم عليه السلطان فركب البحر ولحق بالمشرق مفارقاً الأندلس بأبيات جميلة حيث قال:

يا فرقة أبدلتني بالسروور أسى وأسهرت ناظراً قد طالما نعسا
أنى يكون اجتماع بين مفترق جسم بمصر وروح حلّ اندلسا^(١٤)

آثاره:

كان أبو حيان نحوي عصره ومفسره ومحدثه ومقرئه ومؤرخه وأديبه. معنى هذا انه كان على جانب عظيم من الثقافة والاطلاع وقد قال القدماء عنه انه "ثبت فيما ينقله، محرر لما يقوله، عارف للغة، ضابط ألفاظها. أما النحو فهو أمام الناس كلهم فيه لم يذكر معه في أقطار الأرض غيره في حياته وله اليد الطولى في التفسير والحديث والشروط والفروع وتراجم الناس وطبقاته وحوادثهم خصوصا المغاربة"^(١٥).

آثاره النحوية واللغوية:

- ١- تقريب المقرب.
- ٢- التدريب في تمثيل التقريب.
- ٣- المبدع الملخص من المجتمع.
- ٤- الموفور من شرح ابن عصفور.
- ٥- التذيل والتكامل في شرح التسهيل.
- ٦- التخييل الملخص من شرح التسهيل.
- ٧- التكميل في شرح التسهيل.
- ٨- منهج السالك.
- ٩- ارتشاف الضرب من لسان العرب.
- ١٠- أعراب القرآن.
- ١١- غاية الإحسان في علم اللسان.
- ١٢- النكت الحسان في شرح غاية الإحسان.

كتيبات ورسائل نحوية:

- ١- اللوحة البدرية في علم العربية.
- ٢- الهداية في النحو.

كتب لغوية:

- ١- تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب.
- ٢- التذكرة.
- ٣- القول الفصل في أحكام الفصل.
- ٤- الشذرة.
- ٥- شرح كتاب سيبويه.
- ٦- التجريد لأحكام سيبويه.

٧- كتاب الأسفار الملخص من شرح سيبويه للصفار.

٨- نهاية الأعراب في علمي التصريف والأعراب.

٩- فضل النحو^(١٦).

كتب في لغات مختلفة:

ولم يقتصر أبو حيان على التأليف في اللغة العربية وإنما ألف كتباً في التركية والفارسية والحبشية وغيرها.

١- الأفعال في لسان الترك.

٢- الإدراك للسان الأتراك.

٣- زهو الملك في نحو الترك.

٤- منطق الفرس في لسان الفرس.

٥- نود الغبش في لسان الحبش.

آثاره الدينية:

في التفسير:

١- البحر المحيط (الكتاب الكبير).

٢- النهر الحاد.

في الحديث والفقه:

١- جزء في الحديث.

٢- الأنور الأجل في اختصار المحلى (الأنور الأعلى في اختصار الأعلى).

٣- الوهاج في اختصار المنهاج.

٤- الأعلام بأركان الإسلام.

٥- سلك الرشيد في تحديد مسائل نهاية ابن رشد.

كتبه في القراءات:

١- المورد الغمر في قراءة أبي معمر.

٢- المزن الهامر في قراءة ابن عامر.

٣- الأثير في قراءة ابن كثير.

٤- النافع في قراءة نافع.

٥- الرمزة في قراءة حمزة.

٦- النير الجلي في قراءة زيد بن علي.

- ٧- الروض الباسم في قراءة عاصم.
- ٨- غاية المطلوب في قراءة يعقوب.
- ٩- تقريب النائي في قراءة الكسائي.
- ١٠- عقد اللالي في قراءات السبع العوالي.
- ١١- الحلال الحالية في أسانيد القراءات العالية.

كتبه في التاريخ والتراجم:

- ١- تحفة الندس في نحاة الأندلس.
- ذكره السيوطي باسم (نحاة الأندلس)، وسماه الزركلي (طبقات نحاة الأندلس).
- ٢- فجاني العصر في آداب وتواريخ أهل العصر.
- ذكره السيوطي باسم (مجاني العصر في تواريخ أهل العصر)، وسماه الزركلي (مجاني العصر) وسماه ابن شاکر الکتبي (مجاني القصر في شعراء العصر).
- ٣- النصار في المسلات عن نضاد.
- ٤- (مشيخه ابن أبي منصور) الكتب التي لم تصل إلينا. وسماه صلاح الدين الصفدي (مشيخه أبي المنصور)^(١٧).

في النقد والبلاغة:

- ١- نقد الشعر.
- ٢- خلاصة التبيان في علمي البديع والتبيان، ذكر هذا الكتاب في الارتشاف وهي ارجوزه في علمي البديع والتبيان^(١٨).

كتبه في الشعر:

- ١- منظومة في علمي القافية اسمها (الأبيات الوافية في علم القافية)^(١٩).
- ٢- نوافث السحر في دماث الشعر وقد ذكره صاحب البدر الطالع باسم (بواقيت السحر).
- ٣- ديوان أبي حيان.
- ٤- نثر الزهد في نظم الزهر من كتبه المفقودة^(٢٠).

كتب مختلفة:

- ١- نكت الأمالي^(٢١).
- ٢- الإلما في إفساد إجازة الطباع^(٢٢).
- ٣- فهرس المرويات^(٢٣).

٤ - فهرست مسجوعاته^(٢٤).

٥ - قطر الحبي في جواب أسئلة الذهبي^(٢٥).

وفاته:

وشاء الله أن يجتمع أبو حيان حياته في القاهرة - فتوفي رحمه الله بمنزلة بعد العصر الثامن والعشرين من صفر (سنة ٧٤٥هـ) وصلى عليه بدمشق صلاة الغائب في الجامع الأموي وكان قد فقد بصره لذلك ذكره الصفدي في كتابه (نكت الهميان في نكت العميان)^(٢٦).

وما قاله تلميذه الصفدي مغرباً

مات أثير الدين خير الوري	فاسـتعر البـارق واسـتعبـرا
ورق من حزن نسيم الصبا	واعـتل في الاسـحـار لـما سـرى
وصادحات الايك في دوحها	رثـه في السـجـع عـلى حـرف رآ
يا عين جودي بالدموع التي	تـروي بـها ماضـمـه مـن ثـرى
واجرى دماً فالخطب في شأنه	قـد اقـتـضى أكـثر مـما جـرى
مات إمام كان في علمه	يـرى إماماً والـورى مـن ورا ^(٢٧)

اعتاد الباحثون في ميدان الأدب على دراسة تفصيلية أو دراسة غرض شعري أو مجموعة تخص شاعراً ما أو مجموعة شعراء في بيئة واحدة. وأن أدب العلماء والفقهاء والمفسرين تنوع في أغراضه وأهدافه مما يظهر قدرتهم اللغوية والأدبية بوضوح. فلم يمنع التفسير أو اللغة من كتابتهم الشعر أو قوله ارتجالاً وربما نلمح عند بعضهم ملامح الفقه والتفسير أو النحو في أشعارهم.

وهذا ما شهدوه في ديوان أبي حيان، ومن جميل أشعارهم ما رواه العلامة ابن خلدون عن أبي قاسم بن رضوان قال: ذكرت يوماً صاحبنا أبا عباس أحمد بن شعيب الجزنائي كاتب السلطان أبي الحسن المربيتي فأنشدته مطلع قصيدة أبي الفضل ابن النحوي ولم انسبها ليه:

لـم أدرِ حـين وقـفت بالأطـلال مـالـفرق بـين جـديـدهـا والبـالي

فقال لي على البديهة: هذا شعر فقيه فقلت له: ومن اين لك ذلك؟ قال من قوله: (مالفرق) فهي عبارات الفقهاء وليست من أساليب كلام العرب.

ففرى أن أبا حيان قد طرق كل أبواب الشعر المتضمن لمشاعره الرقيقة التي تنم عن رهافه حسه ففرى تنوع أشعاره في الرومانسية، والوصفية، والحكمة، ومعارضته، واخوانياته. اتخذت أساليب المشاركة من حيث اللغة، واللفظ والأفكار والصور، والإيقاع. ومن جميل ما قاله في العتب على الزمان:

وأخزني دهري وقُدم معشراً
ومذ أفلح الجُهل أيقنت أنني
على أنهم لا يعلمون واعلم
أنا الميم والأيام أفلح* أعلم^(٢٨)

ومع تلك الفترة الزمنية التي عاشها أبو حيان والتي كانت ميزة عصره التقليد وافتقاء أثر المشاركة وكثرة المحسنات البديعية. لم يمنع ذلك أنه استطاع بأصالة وشاعريته التي شهد لها الجميع أن ينجو في كثير من الأحيان ويتحرر من هذا القيد ويظهر مقدرته اللغوية والفنية ففرى تفننه في إظهار الفنون البلاغية من جناس وطباق ومقابلة وغيرها في أكثر من قصيدة في ديوانه.

الشعر الرومانسي

الرومانسية كانت إحدى المحاولات التي قام بها الإنسان للتعبير عن فعلية التجربة الكامنة في النفس البشرية وبالرومانسية يدرك الإنسان أبعاداً من الشخصية في النفس ويكتشف أحاسيس بعيدة تكون في الأصقاع المظلمة من تلك النفس وهي ما عجزت عنه أكثر المذاهب.

إن المعاناة التي يمر بها الشاعر هي من أهم العوامل التي تذكي الرومانسية فضلاً عن المعاناة الكامنة في النفس الإنسانية، وتختلف الرومانسية من شاعر إلى آخر، فكل شاعر اتخذ لذاته سيقاً مستوحى من عصره الذي يعيش فيه ومن نظراته الكلية لواقع الحياة والوجود. فارومانية عند بعض الشعراء كالشاعر الجاهلي تمثل الطلل وبقايا من أحب من ديار وقبائل وأماكن من يحب وذلك مستوحى من نظراته الزوالية المحتمة لزوال الأشياء، لذلك نجد البكاء على الزمن والمطايا الظاغيات في الغداة والرحيل مذكور بقوة في أشعارهم لأنه جزء مهم من تجربة البكاء على الطلل^(٢٩)، ويأتي الشاعر الإسلامي فتظهر عنده الرومانسية بحدود الطابع الملتزم المتأدب وهذا ما كانت تميله تداعيات المرحلة الجديدة من انتشار الدين الإسلامي والسعي إلى التخلق بأخلاقه أما في العصر العباسي فتظهر الرومانسية متداخلة في الغزل ووصف العمران والقصور حتى المتنزهات والرياض ومواضع اللهو في الحياة.

فشعر أبو حيان يمثل الاتجاه المحافظ في أغلب أشعاره التي تمثلت بالرومانسية الهادئة العفيفة التي نلمح فيها أثر الفرح مرة وأثر المعاناة وحزن الفراق مرات عديدة، لكنه ليس الحزن الذي يتسعر للقارئ بالألم، فلا يبي حيان رومانسية سعيدة وحزينة ولكل منهما صفات وطبيعة. فالشعر الرومانسي عند أبي حيان

يتجلى في المائة التي مثلت عبر قصائده كلها الشيء الجميل في حياته التي يجمع بينها وبين صفات الطبيعة ليجعلها معادلة لها في الجمال نقرأ قوله:

يا صبوة قد أتتني آخر العمر	تذكر القلب ما قد كان في الصغر
أباح لي قطف وردٍ يانع نضر	ورشف شهد شهبي عاطر خصر
يا حسنة واريح الراح في فمه	كالمسك در على صافٍ من الدرر
وحبذا زغب في وجنته بدا	هو السياج على روض من الزهر
ورد يضاعف حبيه مضاعفةً	ونرجس زين بالتذليل والحوار
وفيه معنى لطيف ليس مدركه	الا فتى مؤثرة للعقل لا الصور
توكدت بين روحينا مناسبة	لذلك اتفقنا في الورد والصدر ^(٣٠)

وإذا عدنا إلى وصف أبي حيان للمرأة لوجدنا أنه يجمع لها شتات الطبيعة ومظاهر باللون الأحمر وعطر الحمة الممزوجة بالمسك المنثور على صف من الأسنان (الؤلؤية).

وفي الظاهر يخيل إلينا أن أبا حيان شخص المرأة حسيماً مجسداً إحساسه بمواضع المظاهر في الوجه، إلا أن التقصي فيها يطلعنا على ما أضمر الشاعر من إحساس عبر فيه على نوع من الانبهار أزاء جمال المرأة أو الحبيبة فهو يبصر لون بشرتها وخدودها. وقد جمع الشاعر هنا بين حاستي اللمس والبصر في لحظة واحدة وعبر صورة متألفة وهذا الإحساس المكنون عند أبي حيان قد يدنو إلى البعد الرمزي في الباطن فضلاً عن المظهر الرومانسي في ظاهره، والتوحيد بين المرأة والطبيعة في ذلك الشعور العفوي الحاد العميق ولكن من الإنصاف أن نذكر: أن أبا حيان يتغزل بزوجته لأنه ذكر أكثر من موقع أن حب زوجته اغناه عن كل حبيبة وهذه الأشعار كثيرة في ديوان الشاعر مقارنة بالرومانسية الحسية وهذا نابع من الالتزام بتعاليم الدين والعقيدة الصحيحة.

لأبي حيان نمط من الرومانسية المفرحة عند لقاء الحبيبة كما في قوله:

وبالعين السود أفتنت فيالها	سواجي قد حركن شوقاً لمكمد
وعلقته صعب المقادة آبياً	كثير التواقي صينا اذا تشدد
كريم بتأنيس وتحديث ساعة	بخيل بتقبيل وباللمس باليد
وجاذبيته يوماً ففر كأنه	غزال رأى مني احتيال التصيد
فلا طفته حتى استكان وما درى	بأن الدنيا لا تحل بمعقد
مرادي منه ما يريد وقد كفى	تعهدة قلبي بانس مجدد

ورؤية عيني البدر عندي طالعاً
وتشنيفه سمعي بدر منضد
وعلم حبيبي انني لست تاركاً
هواه ولواني احل بملحدي
انادم منه ملء عين ملاحه
والحظ منه الشمس حلت بأسعد
واقطف من آدابه الزهر يانعاً
واشتم ريحاناً بخد مورد
وهنا انا قد رحمت عنه مودعاً
فياليت شعري هل له بعدُ اغتدي^(٣١)

وهنا يفخر أبو حيان بالرومانسية العفيفة جارياً على منهج الشعراء مثل عنتره وعمرو بن كلثوم فنرى في رومانسيته الصفة الالتزامية التي يرتفع صاحبها عن وصف المرأة وصفاً حسياً واطهار مفاتها حتى يخرج عن الحدود الاجتماعية ومحاذيرها، وكان الشاعر يتعبد بالشهوة وهنا نلمح بعداً آخر لأبي حيان حين أخذ منحى جديداً حيث يتغزل بحبيبته تغزلاً معنوياً فاق عنده جمال التغزل الحسي فأبو حيان جعل من أخلاق محبوبته وشدة حياها كالأزهار يشم عبير فضائلها من قريب وبعيد ومع ذلك لم يترك أبو حيان التغزل بخيوط حبيبته الشمس التي جعلها تشبه حبيبته حيث يقول:

ولما رأو حسنا يفوق تخليوا
سفاه بان الشمس في الحسن تحكيك
وشكوا أنت الشمس أم هي وشكوا
وما واجد للعقل يفضي بتشكيك
وان جمالاً قد تنظم عقده
يجيدك يوماً لا يرام بتفكيك
فلا تحسبني شمس الضحاء اذا بدت
تعارض في حسن وان هي تنكيك
ولكنها من فرط حبك لو رات
لوجهك بعدا ظلت الدهر تبكيك^(٣٢)

ان هذه القصيدة مثلت بحق الرومانسية الهادئة التي أشعرتني بحب أبو حيان لطبيعة الأندلس بحيث لم تخل قصائد الحب عنده منها نراها هيمنت على قلبه وعقله حتى حاكى بها الزوجة والحبيبة في آن واحد، فنراه يترنح على خيوط شمسها الساطعة وأغصانها المورقة حتى ينفذ عبر اديمها ويبت هموم الشوق المكنون ومعاناته مع حبيبته بين ثناياها، ولأنجد غرابه في ذلك فأبو حيان شاعر رقيق عانى كثيراً في أشعاره من اثر الحب الصادق الذي لم يخرج عن حدود أخلاق العالم الرباني. ونقرأ لأبي حيان رومانسية مفرحة تتمثل في قوله:

أوجهك أم بدر منير تلجا
ونشرك ام مسك فتيق تأرجا
محاسن لم يجمع لغيرك مثلها
شباباً وحسناً باهر يسكب الحجا
اجلت لحاظي في الملاح فما رأت
لحاظي أبهى منك حسناً وابها

شكوت اليه ما بقلبي من الجوى	ووجدى فاستحدى حياء وولجلجا
رأى شبحي نضوراً ونطقي خافتاً	ودمعي هتاناً وحسي قد سجا
فزاد بلا وعد دجن فخاله	ترصد من حراسه غفلة وجا
فلم ارى مولى زار عبداً كمثله	ولم ارى مثلي نال ما كان قد رجا
خلوت به الدهر قد غض طرفه	وقد سد باب الخوف مفتوح الرجا
فعانقت منه الفضة املدنا ناضراً	وغازلت منه الخشف احورادعجا
ولليل من تلك الذوائب ظلمة	وللصبح من خديه نور تبجلي
فمن يستحيل جمع لضدين عنده	فهذا حبيبي جامع النور والدجي ^(٣٣)

هذه القصيدة مثلت الوجه الآخر لرومانسية أبي حيان ونرى بين أسطرها حيرة الحب في أي الصور يشبه محبوبه الذي أبتدا بمناداته أوجهك أم بدر، ولم يتحير الشاعر في وجه الحبيبة فقط بل حتى في عطره الذي فاح في الأجواء.

فأبو حيان لم يكتف بإظهار محاسن ومفاتيح حبيبته وجمالها بل انعطف يثني على محاسن أخلاقها، وهذه من عادات العرب الذين عرفوا محاسن الأخلاق حتى إنهم ليضعونها موضع التاج من الرأس.

فحبيبة أبي حيان ذات حياء وخلق جم حتى إذا ناطقها ترى خديها يحمر خجلاً، ولسانها يتلجلج وزاد حيائها حين شكا اليها عاطفته الجياشة وحب المكنون. فلولا ذلك الاحمرار ماكشف لنا عن وجه الحبيبة الذي هو كالشمس الساطعة الذي عكس في ذات الوقت وجه أبي حيان الضعيف ونطقه الخافت ودموعه المنهمرة والمتواصلة كتواصل حبه العام واعترافه بذلك الحب. حتى عندما وصف أبو حيان زيارته أنها كانت بلا موعد زيارة مطيع لذلك الحب شبهها (بالمولى الذي زار عبده) ونراه في وقفه من الزمن وغفلة من الدهر يتباهى أبو حيان بما حوى محبوبه من الجمال وحسن الصفات فجمع شكوى الحب وسواد الليل وهدوءه وعتمته كعتمة ضنائر حبيبته في ذلك الليل الذي لا يحب أبو حيان ان ينقضي ولما ينقضي؟ وقد تشارك مع بياض القدر والوجه كأنه النهار ودجى الشعر الأسود وسواد الليل مما جعل أبو حيان يتباهى للمرة الثانية بجمع محبوبه هذا الاضداد من مفاتيح الحسن، وهذه من ضمن التفنن البلاغي عند أبي حيان حيث جمع بين الشيء وضده في بيت واحد.

وينتهي أبو حيان قصيدته القصصية بمنحى جميل فيه رومانسية غزلية لها بداية، ثم دخل إلى حوار يشوبه الحب ويظهر الجمال بتعبير جميل من غير أن يكون للحبيبة فيه قصد وتنتهي القصة بالزيارة وتفصيلها وهذه إحدى القصائد التي تناولها أبو حيان كقصة شعرية لها بداية وحوار ونهاية.

شعر الحكمة

تتجلى الحكمة في أشعار أبي حيان والتي تنوعت ما بين حكم حول محبة العلم والعلماء والحث على دراسة العلوم الشرعية وحكم يدين الدنيا بكل مفاتها وترغيب النفس على حث الخطى إلى الله والزهد فيما سواه وحكم خاصة بأبي حيان كانت خلاصة تجربته في هذه الحياة وبعد أن فقد أهله وبصره وهجره معظم أصدقائه بعد أن أيقن أنهم أصحاب حاجة ما إن قضت حاجتهم رحلوا كرحيل كل شيء في حياته وأن حال الأصحاب والدنيا لم تسبق حكما خاصة به بل هو حال الدنيا فأنا معه ومع وصفه على العلم والناس.

فلنقرأ حكمته في طلب العلم، يقول:

ومن كان تلميذاً ويزعم أنه
كشيخ له فالجهل أولاه حرمانا
لدى الشيخ من علم زوايا غريبة
قد أكسبها مذ عاش في العلم ازمانا
عجبت لمثلي عشت سبعين حجة
أعاني لسان العرب جمعا وشبانا
فما صلح عندي غير أنني مقصر
وقد فاتنا منه كثير وأعيانا^(٣٤)

يوضح أبو حيان هنا قاعدة علمية مهمة لمن رام تحصيل العلم الشرعي والذي يظن انه شيخ نفسه لا يحتاج إلى معلم أو دليل فذاك له الجهل جائزة على حرمان نفسه من التعلم على يد معلم يخرج دررا من علمه ويوضح غوامضه وألغازه ويروي غريبه بخبرة العلم التي عاش يكتسبها أزماناً وأزمات، وهذا دليل على أن العلم لا يستحصل بين ليلة وضحاها، فأبو حيان يتعجب مما يظهر عجلة في تعلمه حتى يدعي انه صار شيئا ويضرب مثلاً من نفسه عاش سبعين سنة من عمره ليعدل الألسنة إلى العربية لأنه عاش في وقت كثرت فيه الأجناس غير العربية من أتراك وبربر.

ولا عجب من ذلك فأبو حيان كان يقول عن نفسه "أنا أبو حياة" بالتاء - يعني بعض تلاميذه فقد اعتبر نفسه واهب الحياة^(٣٥) وهي العلم الشرعي فالدين غذاء الروح للإنسان في كل الأزمان. ويقول في موضع آخر من فضل الكتب والاستئناس بها:

أرحت نفسي من الإيناس بالناس
لما غنيت عن الأكياس باليأس
وصرت في البيت وحدي لا أرى أحدا
بنات فكري وكتبي هن جلاسي^(٣٦)

ويقول في موضع آخر:

إذا كان للإنسان عندك حاجة
أتى رائحاً فيها إليك وغاديا
فإن تقضها يوماً فليس مسلماً
عليك ويهوى أن يرى لك ناعيا^(٣٧)

هنا نلمس مرارة الألم وشدة المعاناة التي تسطرها هذه السطور من شعر أبي حيان، فهو يصف حاله بأنه كان قاضيا لحاجات الناس بحيث كانوا يرحون ويغدون ويسلمون ويمدحون ما دامت حاجاتهم تقضى ورغباتهم تلبي بل بالعكس هناك من الناس الذين كشف عنهم أبو حيان بأنهم لا يريدون أن يظهر فضل صاحب الفصل عليهم ما داموا بين الناس فإما أن تقضى حوائجهم ويذهبون من غير عودة وسلام وإما أن يتمنون لك الموت ويكون هو من ينعاك حتى لا يذكر فضله بين الناس عليك، وهذا ليس من سوء الظن بل هو خبرة العالم بين الناس وخلاصة تجربة عانى منها أبو حيان الكثير من هؤلاء الناس، وفي موضع ثاني نراه يقول حكمه حول عزة النفس وإتباع المرء لعقله لا لغيره حتى لا يكون كالثمة بين الناس إذا أساءوا ساء وإذا أحسنوا حسن حيث يقول:

إذا استتبع نفس امرئ نفس غيره فتلك لها عز وهذي لها ذل

كفى بك نقصا ان غيرك حاكم عليك فلا عقد إليك ولا حل (٣٨)

ويستمر أبو حيان بعرض حكمه التي كانت حصيلة خبرته الطويلة مع الحياة والعلم ومجالس العلم ومع الناس كافة ويعتز بأن يكون قائد نفسه ورائدها في العمل والقرار لأن إتباع المرء لغيره في كل شيء فذلك مفسدة لشخصيته، وكان حاكما غير عقله عليه ومنقصة عليه فسيكون الإنسان ذليلا بهذا الإتياع وعد ذلك أبو حيان منقصة في الشخص لأن نفس غيره حاكمة عليه فهو لا يملك حلا ولا ربطا في أمور ديناه وهذه الشخصية ينقدها أبو حيان لأنها لا تلبق بذوي العلم ولا من يريد التعلم لأن أخطر شيء في تعلم العلوم الشرعية التقليد والإتياع من غير فهم ومعرفة.

وقوله في موضع آخر يوصي بأن يوضع الإحسان محله وأن يكون لأهله:

إذا وضع الإحسان في الخب^(٣٩) لم يفد سوى كفره، والحر يجزي به الشكرا

كغيث سقى أفعى فجاءت بسمها وصاحب أصدافا فائمرت الدر^(٣٩)

هنا يضع أبو حيان قاعدة اجتماعية لكيفية التعامل مع الناس كافة وبرأي الباحث ان هذه الحكمة من أهم الحكم بعد حكم العلم والحث على تعلمه فنراه يحث على ان يوضع الاحسان الذي هو أعلى مرتبة من عمل الخير لأنه فيه الصفح الجميل بعد الفعل القبيح فإذا وضع هذا الخير في (الإنسان الخبيث) لم تر فيه خيرا على عكس صاحب النفس الكريمة الأبية فالخير فيها يثمر الشكر الموصول بالثناء الحسن لصاحب الإحسان بين الناس.

فأعطى لنا صورة تشبيهه في البيت الثاني بواسطة حرف التشبيه الكاف، فالعمل الصالح والإحسان للناس كالمنطق الذي ينزل ليروي الأرض ويخضر الزرع، فإذا نزلت هذه المياه إلى أفواه الأفاعي فمن الطبيعي أنها لا تورث الخير فالأفعى كا (الخب) لا يوضع الإحسان فيها فالأفعى ليس كالصديق إن أودعت فيه خيراً لاقيت درراً فالأصداف قابلت (الحر) الذي يجزي الشكر التي قابلت الدرراً.

١- الخب = الأفعى ← ينتج سحاً

٢- الأصداف = النفس الكريمة ← ينتج الشكراً

والجميل في حكم أبي حيان تنوعها وواقعيتها التي تعكس تعاملهم مع الناس، فحكمه عن الآخرة تنتفض عبثاً وزهداً في الدنيا بين ثناياها وقد أكثر منها لأنه وصل إلى مرحلة الشيخوخة والوحدة التي فرضها على نفسه بعد أن لاقى ما لاقى من صروف الدهر والناس بحيث عفت نفسه عن هذه الحياة وملذاتها حيث يقول:

وناضي الطرف بين التراب والدود

ويذهب الجسم بين التراب والدود^(٤٠)

يا منضي الطرف في ميدان لذته

ستشربُ الراح راح الوقت كارهة

ونقرأ معاً قول أبي حيان في وصفه لأعدائه عندما أعطى في حقهم حكماً وصلت إلى درجة الدعاء بأن لا يبعد عن أعدائه قائلاً:

فلا أذهب الرحمن عني الاعادي

وهم نافسوني فاكسبت المعاليا^(٤١)

عداتي لهم فضل علي ومنّة

هم بحثوا عن زلّتي فاجتنبها

أليس من الغريب أن يجعل الإنسان فضلاً لأعدائه عليه بل ليس فضلاً فحسب وإنما يجعل من ذلك حكمه ينطق بها بين الناس حتى يحفظونها ويتخذون منها عبرة في حياتهم، ويدعوا الله سبحانه وتعالى بأن لا يذهب عنه أعداءه وأغلب الظن أن أعداء أبي حيان كانوا منافسيه في ميدان العلم والشعر وقد عانى منهم في بداية حياته بالأندلس، إذ كانت إحدى أسباب هجرته إلى مصر ومن غير عودة حتى انه وصفهم وفي بداية حياته إذ قال:

نارا فيشعل من فيه لنا قبساً

فرام هتك حمى ما زال محترساً^(٤٢)

وري ذي حق تغلي مراجله

رأي سموي وما أتيت من شرف

وفي موضع آخر يصفهم بـ:

وان حضرت ترأهم خشعا نكسا^(٤٣)

قوم اذا غبت قالوا ما يليق بهم

فنرى أن معاناة أبي حيان قديمة مع أعدائه ومنافسيه ومع ذلك يجالّد الحياة والناس ويعلن لا أذهب الرحمن عنه إلا عاديًا فلقد كانوا له أصحاب فضل ومنة بأنهم جعلوه يجتنّب الزلات والأخطاء فأكسبه المعالي وارتفع قدره في البلدان وفاح ذكره بين الناس، حقا أنّها معادلة غريبة لكنها صحيحة.

شعر الوصف

من خلال النظر والتأمل في النصوص الشعرية الوصفية من حيث بنائها وشكلها الخارجي العام أدركت للوهلة الأولى أن الشاعر لم كان سائراً على نهج واحد في عرض الصور الوصفية أي انه أفرد قصائد مستقلة في وصف حيوان معين، وقد تكثر هذه الأبيات أو تقل بحسب المعاني التي يود الشاعر عرضها، ونلاحظ أن القصائد التي افردا الشعراء في وصف حيوانات معينة أكثر ما تلاحظ في وصف الخيل والحمام إلا أننا نلمس التجديد في الفكرة والصورة عند أبي حيان حين انفرد بوصف التمساح الذي اندهش لرؤيته في نهر النيل لأول مرة والفيل الذي أعجب من حجمه وغريب عمله وقد سمي هذه بالمعالجة المستقلة التي تنطوي على ذكر حيوان واحد بكل تفاصيله وأوضاع حياته مستوعباً الصفات الحسية والمعنوية في مزج مؤثر وتصوير جميل وعلى قدر واضح من الدقة، كما نرى ذلك في قصيدة أبي حيان التي يصف فيها التمساح حين ظهر على حين غفلة^(٤٤).

وما هو في أرضٍ سوى مصرٍ يُوجدُ	وخلق غريبَ الشكل في مصرٍ ناشيء
يقافص منّ للماء في النيل يقصّدُ	هو السبع العادي بنيلٍ صعيدها
ويفصله عضواً فعضواً ويزرّدُ	ويخطفه خطف العقاب لصيدها
ورجل سواه وهو البر يصعد	وما من شخوص النيل خلق له يد
يلف به من كان في الناس يفقد	له ذنب مرخيّ طويل يقيمه
لكسر العظام الصلب منها تفقدُ	وأسنانه انثى على ذكرٍ أتت
يعاهدّها غبا الى حين تولّدُ	ويحفّر في رملٍ ويدفن بيضه
على جلده منه صفيحٌ مسرّدُ	ولا تعمل الاسيافُ فيه كأنما
فمنها المنايا دونه تتصدّدُ ^(٤٥)	ولكن تحت الإبط لئن جلدة

وفي موضع آخر نراه يظهر براعته اللغوية والفكرية ودقة الوصف، نلمس هذا بوصفه الحيوانات التي يشاهدها فتعجبه كالتمساح والفيل، إما لضخامتها أو لافتراسها كما نلاحظ ذلك في وصفه للتمساح وهو يخرج من النيل ويعود إليه بسرعة وكان يسمع عنه فقط وله قصيدتان أحدهما في وصف التمساح الذي شاهده في مصر ولأول مرة ويتحدث عن افتراسه الناس، ووصف ضخامة هيئته وجلده الذي يكسوه ونقطة ضعفه التي تحت إبطه اذ بغرزا يموت ويتأذى ووصف أسنانه المتشابكة التي لو أتت على

عظم لهشمته وكيف يتكاثر وأين يضع بيضه وذنبه الطويل الذي يلف به فريسته واقتناصه لفريسته وخروجه من النهر وعودته اليه وكل ما يتعلق بهذا المخلوق العجيب في نظره، ووصفه الدقيق لهذا الحيوان فيه دلالة قوية على ذكاء هذا الشاعر وقوة ملاحظته وبراعة وصفه الدقيق اذ لم يترك منه شاردة ولا واردة إلا بينها ما بين متعجب اومذهول من هذا الحيوان المفترس وصلابة جسمه ومكان القوة فيه مثلما وضع ملاحظته عن نقاط ضعفه.

ويقول في وصف فيل رآه فاعجبه:

ففيحاء يعلوها عديدٌ من الرجل
صفيحٌ حديدٍ لا يخرق بالنبل

وأدكن مثل الطودِ أمّا سرّاته
له جثّةٌ عظمي كأنّ اهابه

ويقول في موضع آخر:

عوامدٌ صخرٍ قد غنّين عن النقل
كأنّ بها الزلزال من وطاة الثقل
تراوخُ جنبه فيمشي على رسل
مقام يدٍ في الأخذ والرمي والأكل
ويقوى على قلع العظيم من النخل
كأنهم قد رشهم منه العطل
مخاريقٌ بالأيدي تحفُ فتستعلي
له خدمة غرزاً بأنيابه العصل

ويردى على غلبٍ غلاظٍ كأنها
إذا هزّ ما بالأرضِ ما دّت بأهلها
سفينة برّ قلعتها أذنّ له
وخرطومُه قد قام فيما يرومه
عجبت له من جلدةٍ لأن مسها
ويملؤه ماءً يبخ به الوري
ويلعب بالأسياف حتى كأنها
إذا ما رأى السلطان قد خر باركا

يكادُ يباري في الذكاء ذوي العقل^(٤٦)

ذكيّ أخوفهم على عظم جسمه

يصف ابو حيان هنا الفيل بدقة ويظهر إعجابه بهذا الحيوان من حيث الضخامة والذكاء الذي يتمتع به نجده يركز في وصفه على جسمه العظيم الذي شبهه بالارض الواسعة ذات اللون الداكن وكأن هذه الارض (الفيل) قد حملت على أرجلٍ عديدة وشبه جلده بالصفيح لقوته بحيث لا يخترق حتى بالنبال وأقدامه بالعوارض الصخرية التي لا تتحرك الا بقدرة عجيبة، ومع هذه المبالغة في الوصف نراه استرسل في وصفه حيث شبه حركة الفيل بالزلزال من شدة ثقله وأراد تقريب الصورة الذهنية لهذا الحيوان الضخم حيث أعطاه صورة تشبيهية أخرى بأن الفيل سفينة كبيرة شراعها يتقدمها وقصد بالشراع أذن الفيل كلما حركها سارت تلك السفينة برسل وهي مطمئنة أما خرطوم هذا الكائن، فله وصف منفرد صورته أبو حيان فالخرطوم ذات الجلد الرقيق الشكل العظيم الفعل الذي يستخدمه لعدة أعمال منها رفع

الطعام الى فمه ونقل الأشياء التي يرغب في نقلها وقوته يكاد ان يقلع فيه نخلة ويرش به الماء على جسده الصلب الذي يحدث الفوضى لو اغتسل.

والمأمل في هذه الصورة يلمس تفنن أبي حيان وقدرته على استخدام الكناية والتشبيه التي تساعد القارئ على تقريب الصورة الذهنية للقارئ وسهولة التخيل لمن ير فعل هذا الحيوان.

وكرر الوصف في ديوان أبي حيان وتفنن فيه، فمن وصفه للطبيعة وما دار في حسنها وأبدع في كل ما شاهد من جميل المنظر سواء أكان لإنسان أو حيوان أو قصور أو رياض زاهية حاكاً فيها شعراء المشرق من العصر العباسي، وليس من الغريب ان نرى ابداع ابي حيان في وصف حالة فقد البصر في الثمانين من عمره لذلك اكثر من ذكر اللون الأسود في تلك الفترة من حياته حيث التقى هذا اللون مع فقد البصر وسواد الليل وظلمة القبر.

ومما جاء في وصف أبي حيان للطبيعة أنه زار يوماً منتزها مع أصحابه فأعجبه ذلك المنظر فأنشد أبيات غاية في الوصف الدقيق تنم عن تذوق في الجمال وذكاء في التعبير.

ورق كأخلاقٍ لنا لم ترنقُ	صففنا حوالي بركة راق ماءها
إوز ففاتتنا تصيح وتلتقي	سبحنا بها عوماً فغارت لسبحنا
ورنتها صبا كثير الشوق	وناعورة تحكي بطول بكائها
فأضلاعها عن دمعها لم تضيق	لئن ضاق منها الجفن من عبراتها
وناحت فأزرت بالحمام المطوق	بكت فأرتنا الدهر يضحك اذ بكت
كطوق بجيدٍ او كتاج بمفرق	وقد ضمنا وسط الرياض مكعب
مسارقةً منها تطلع شيق	تطالعا الشمس المنيرة لحظها
شعاعاً يحاكي نقش بردٍ منمق	تلقي علينا من شبابيك نورها
تألق بالحيطان اي تالق	اذا ما التقى بالماء منها شعاعها
اذا الماء اضحى بالصبا ذا ترقق ^(٤٧)	فيرقص منها الظل في جدرانها

في الأبيات المتقدمة نجد أبا حيان يصف رحلة الى منتزه مع أصحابه وضمنها ما أعجبه في المنتزه حين مر على بركة صافية الماء سبح فيها مع صحبه وكان بجانبهم أوز جميل تسابقوا معه حتى ارتفع صوت الإوز، فمنها ما اصطف ومنها من هرب ليصف لنا منظرًا غاية الوصف بأسلوب قصصي جميل وهذا من فنه المعتاد عليه في معظم قصائده الوصفية. وكان في المنتزه ناعور جميل يقع في الجانب يأخذ الناظر بحركته وشدة تدفق الماء منه مما حدا بأبي حيان يصف هذا التدفق بالدموع مع صوت شحي يصدر منه ليقرب الى القاريء صورة الطفل الذي يبكي عند فقد الأشياء التي يحبها ليبين بعدها ان الناعور هو

أجمل شيء في ذاك المكان فجماها ضحك كل من حولها وكل من رآها ليجمع بين ضدين البكاء والضحك في مكان واحد لجماد وطيور اجتمعت حول الناعور وكأنها تواسيه ويحيط بهذا المنظر طوق أخضر جميل كأنه التاج فوق العروس وقد سلط عليه شعاع الشمس الذي زاد خضرة الشجر التي انعكست فوق الماء فازدادت بريقاً ولمعانا حتى أنه من حسننها انتظر من جاء للمكان شروق الشمس ثانية للتمتع بمشاهدة المنظر من جديد لحسن المنظر، ونجد أبا حيان قد أحسن في اختيار المفردات التي تناسب الجمال كقوله: رق، راق، سروراً، شعاعاً، تألق يضاف لها تشبيه الطوق الأخضر للمتنزه بالتاج أو السور في يد الفتاة الجميلة وعليها تاج من ذهب ولكنه هنا ناسب لون المتنزه اللون الأخضر واستخدم كاف التشبيه في أكثر من موضع لتتقارب الصورة ألتشبيهية في ذهن السامع.

يقول واصفاً حاله بعد فقد البصر في أواخر عمره:

عشيت عيني فلا أبصر ما	خط في صحف ولا شي حسن
ولقد كان أنيسي بصري	فعد مت الأنس منه والوسن
طالما أنضيت طرفاً للصبأ	ذا سباب مرخيا منه الرسن ^(٤٨)

فقد أبو حيان بصره بعد أن بلغ الثمانين من عمره. ورغم ذلك احتسب أمره إلى الله تعالى ولم يجزع بقوة إيمانه وصبره وندم على شيء واحد فقط هو حرمانه من النظر إلى صحف العلم والقرآن وكل شيء جميل لأن العلم الذي أفنى حياته فيه كان أنيساً له بعد فقد زوجه وابنته و ابنه، ويفقد بعدهما عينيه التي بقيت حتى الثمانين من عمره أنيسه الوحيد، ولم يبق له إلا التذكر والخيال لسد فراغ الوحشة والغربة. ونجده في هذه المرحلة من حياته يكثر من لفظ اللون الأسود في شعره ليرمز له بفقد البصر وظلمة القبر وقسوة الحياة وهو الذي ابصر يوماً الجمال والحسن وعشق من هوى ليقول عن نفسه مضى هذا ولم يبقى لي غير فكرٍ ولسان بليغ يؤنس هذه الوحشة التي يعيشها.

وصف الرؤيا

هي نفس أخلاقها مستمر	وهي روح أنواره تلالا
فهما واحد هما اثنان بالوص	ف نساء في هيكل ورجالاً
اودع الله قوة العقل فيها	فهبي في النوم تبصر الاشكالا
بينما المرء نائماً في مقر	جابت الأرض سهلها والجبالا
بين رؤيا تجي مثل سنا الصبح	ورؤيا أخرى تجي خيالا
واحلت دنها زماناً فلما	فارقنتي كرهاً ابت اتصالا ^(٤٩)

وصف أبو حيان يوماً النفس وغيا معظم محسوساتها إلا سيما النظر ولا فرق بين رجل وامرأة. ولفت النظر إلى قوة عقل الإنسان حتى عند نومه وإن الله حباه بميزة العقل حتى عند نومه فهو يبصر، والبصر عنده كناية بالحلم والرؤيا التي يراها عند نومه وتنقله في هذه الأرض الفسيحة من جبال وسهول وتنقسم رؤيا الإنسان بين عالم المحسوس والمعقول إلى خيال ومبالغة فالنفس عنده والنظر لأحد لهما فقد تأتي الرؤيا حقيقية بكل تفاصيلها وقد تكون دون ذلك وما يراه الإنسان يوماً في نومه قد لا يتكرر أبداً. لجأ أبو حيان إلى هذه الصورة لفقده بصره أواخر عمره مما جعله يتذكر الأشياء الجميلة التي شاهدها يوماً في حياته إلى خيال ذهني أو رؤيا في منامه تعويضاً للنقص الذي شعر به عند فقد البصر وتبصيراً لنفسه كما بين في القصيدة المتقدمة بأن عينه كانت شكواه يوماً ما في هذه الحياة.

قال في وصف أعمى:

ماضر حسن الذي أهواه أن سنى	كريمتيه بلا شين قد احتجاج
فقد كانتا زهرتي روض وقد ذوتا	لكن حسنهما الفتان ما ذهب
كالسيف قد زال عنه صقله فغدا	انكى وآلم في قلبي الذي ضربا ^(٥٠)

مر يوماً أبو حيان بأعمى فاستوقفه هذا المشهد ووصف هذا الأعمى وصفاً يليق به وإن فقد البصر أبقى له بهاءً وإن أم يره هو فقال: ما ضر حسن الذي أهواه..... وقال أن الحسن لا يزال في هاتين العينين ولم يذهب، وشبه فقد البصر بذهاب بريق السيف إذا تركه صاحبه من غير صقل ورغم ذلك فالسيف على هذه الحال هو أبلغ الضرر في خصمه إذ استخدم في حرب العدا، ونجده في موضع آخر يشبه العينين بالزهرتين في وسط روض يزول ولكن حسنهما الفتان لم يزل عنه. وأخيراً نقول إن النظر في جمال التعبير ودقة التصوير يمكن أن يعد نتيجة لما سبق عرضه ذلك أن احتواء النصوص الشعرية على جملة من الصفات المتعلقة بالأفكار والألفاظ والأساليب يجب أن تؤدي إلى تيجنه واحدة تهدف إلى دقة وجمال التصوير.

ونرى أن شعراء المشاركة قد عالجوا شعر الوصف عندهم وكثر تناوله عندهم فمن الناقبة إلى الذئب. إلى الأفعى إلى الطير المحلق في السماء. تناول الشعراء الاندلسيين لموضوعات الوصف تفوق في الكم نظيرتها في المشرق وتنوع أكثر من البيئة المشرقية من حيث طبيعة الأرض حيث السهل والجبل والصحراء وتوافر الأنهار والبرك والرياح، لذلك يختم القول بأن شعر الوصف من الموضوعات المشتركة من المشاركة والاندلسيين لأن الأدب العربي في جميع البيئات ومهما تباعدت الأزمان له خطوط وقواعد يجب أن يعتمد عليها أدب أي فترة وفي أي بلد حتى يكون في نهاية المطاف هذا الأمر أكثر انسجاماً ووضوحاً.

(References)

- (*) جيان: مدينة بالأندلس بينها وبين مياس ٢٠ ميلاً، ينظر: الحميري ابن عبد المنعم، الروض المعطار في خير الأقطار، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط ٢، ١٩٨٤م، ص ١٨٣.
- (١) السيوطي جلال الدين، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، مصر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط ١، ١٩٦٤م، ٢٨٠/١.
- (**) النفري: قبيلة من قبائل البربر من ولد قيس بن عيلان وهم قبائل (زناتة، صنهاجة، هواده...)، ينظر بغية الوعاة، ٢٨٠/١.
- (٢) الخبلي عبد الحي بن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير دمشق، ط ١، ١٩٨٦، ١٤٥/٦.
- (٣) التلمساني أحمد بن محمد المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي (د.ت)، تحقيق: د. إحسان عباس، ط ١، بيروت، ١٩٦٨م، ٣١٤/٣.
- (٤) الأندلسي أبو حيان، ديوانه، ص ٢٢. تحقيق د. أحمد مطلوب ود. خديجة الحديثي، ط ١، بغداد ١٩٦٩م.
- (٥) الأندلسي أبو حيان، تفسير البحر المحيط، تحقيق: الشيخ عادل أحمد والشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق: د. زكريا عبد المجيد النوني، د. أحمد النجولي، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان ٢٠٠٧م، ص ٨.
- (٦) الحضرمي عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: حجر عاصي، منشورات دار ومكتبة الهلال بيروت ١٩٨٣م، ص ٤٢٠.
- (٧) العسقلاني أحمد بن علي، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حققه ووضع فهرسه محمد سيد جاد الحق، ط دار الكتب الحديثة، مصر، ط ١، ١٩٦٦م، ٣٩٥/٤.
- (٨) ديوان أبي حيان، ص ١٧٨.
- (٩) ديوان أبي حيان، ص ١٩٣.
- (١٠) أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، ٢٨/١.
- (١١) التلمساني أحمد بن محمد المقرئ، نفح الطيب، ٣٣٧/١.
- (١٢) السيوطي جلال الدين، بغية الوعاة، ٢٨١/١.
- (*) ابن الطباع: هو حمد بن علي بن محمد المشهود بأبن الطباع وهو خطيبٌ بليغ وشيخ القراء في غرناطة أخذ عنه القراءات أبي حيان وتوفي سنة ثمانين وست ومائة. الصفدي صلاح الدين بن أبيك، الوافي بالوفيات، ط ٢، باعتناء هلموت ريتز، دار النشر، فوانس شايز، ١٩٦١م، ٤٦٠/٢.
- (١٣) التلمساني أحمد بن محمد المقرئ، نفح الطيب، ٣٤١/٣.
- (١٤) ديوان ابن حيان، ص ٢٢٤.
- (١٥) التلمساني أحمد بن محمد المقرئ، نفح الطيب، ٢٩٥/٣.
- (١٦) الحديثي خديجة، أبو حيان النحوي، مكتبة النهضة، بغداد، ط ١، ١٩٦٦، ص ٤٥.

- (١٧) البغدادي إسماعيل باشا، هدية العارفين، الطبعة الأولى، استنبول، ١٩٥٥، ١٥٣/١
- (١٨) التلمساني أحمد بن محمد المقرئ، نفح الطيب: ٣٠٧/٣.
- (١٩) الكنتي محمد شاهر (٧٦٤هـ)، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣م، ٥٦١/٢.
- الشوكاني محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ط ١، القاهرة لسنة ١٤٤٨هـ، ٢٨٩/٢.
- (٢٠) العسقلاني أحمد بن علي، الدرر الكامنة: ٢٠٥/٤.
- (٢١) التلمساني أحمد بن محمد المقرئ، النفح: ٣٠٧/٣.
- (٢٢) المصدر نفسه: ٣٤١/٣.
- (٢٣) التلمساني أحمد بن محمد المقرئ، نفح الطيب: ١٠٩/٣.
- (٢٤) التلمساني أحمد بن محمد المقرئ، النفح: ٣٠٧/٣.
- (٢٥) العسقلاني أحمد بن علي، الدرر الكامنة: ٤٦٠/٤.
- (٢٦) الاسنوي جمال الدين، طبقات الشافعية، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط ١، ١٩٨٣، ص ٩٧.
- (٢٧) التلمساني أحمد بن محمد المقرئ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب: ٢٩٢ / ٣.
- * أفلح: مشقوق اللثة السفلى، والأعلم، مشقوق اللثة العليا، ومن كان كذلك لا ينطق حرف الميم.
- (٢٨) ديوان أبي حيان، ص ٩٨.
- (٢٩) الحاوي ألياء، الرومانسية في الشعر الغربي والعربي، بيروت، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٨٠م، ص ١١١.
- (٣٠) ديوان أبي حيان، ص ١٨٧.
- (٣١) المصدر نفسه، ص ١٦٢.
- (٣٢) المصدر نفسه، ص ١٨٧.
- (٣٣) المصدر نفسه، ص ١٨٧.
- (٣٤) المصدر نفسه، ص ٣٩٥.
- (٣٥) زين الدين عمر، الوردية تاريخ ابن الوردية، مطبعة النهضة المصرية القاهرة ١٢٨٥هـ، ٣٣٩/٢.
- (٣٦) ديوان أبي حيان، ص ٩١.
- (٣٧) المصدر نفسه، ص ٩٢.
- (٣٨) المصدر نفسه، ص ٨١.
- (*) الخُب: الإنسان الخبيث أو الغشاش وفي الحديث النبوي "لا يدخل الجنة خبٌ ولا خائن". المعجم الوسيط مادة خب.
- (٣٩) ديوان أبي حيان، ص ٥٢.
- (٤٠) المصدر نفسه، ص ٨٠.
- (٤١) المصدر نفسه، ص ٨١.
- (٤٢) المصدر نفسه، ص ٤١.
- (٤٣) المصدر نفسه، ص ٤٢.

- (٤٤) خضر د. حازم عبد الله، وصف الحيوان في الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، طبعة وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، ١٩٨٧، ص ١٩٧
- (٤٥) ديوان أبي حيان، ص ١٥٠.
- (٤٦) المصدر نفسه، ص ٣٥٠-٣٥١.
- (٤٧) المصدر نفسه، ص ٣١٤.
- (٤٨) المصدر نفسه، ص ٤٩٨.
- (٤٩) المصدر نفسه، ص ٣٦٣.
- (٥٠) المصدر نفسه: ص ٤٢٧.